

ملاحظات حول مفهوم «الغزو الثقافي» عربياً

«إنني أمحي أمام إنسان ليس بُعد هنا،
وأنحني، من مسافة ألف سنة، أمام روحه»
مارتن هيدجر

ابراهيم محمود

ينطلق منها، ويعود إليها، متسلحاً بواقعٍ مختزلٍ شعبيٍّ يؤكد اختزالته ذاته.

ولقد استطعنا في قراءتنا لحركية هذا الغزو وإشكالياته، عربياً، لملمة عدّة ملاحظات انتقادية، وهي:

١ - إن مفهوم الغزو الثقافي ضالٌّ ومُضِلٌّ في آن، لأنه يقيم علاقة بين حقيقتين: الأولى وهي «الغزو» عبارة عن تصوّر مُؤدّج، يلحق به الواقع؛ والثانية (كلمة «الثقافي») عبارة عن علاقات قيمية وأفكار تُداول بين الناس، ليست ثابتة (وبين المجتمعات علاقات غير متكافئة، بحكم صيرورة التاريخ). الغزو مفهومٌ عسكري، تسلطي، عنفي؛ وأمّا الثقافي فمفهومٌ مختلف، يحمل في داخله «بطبيعته» تواريخاً عامّةً تتصارع، لأنه يجسّد مجتمعاتٍ مختلفة في مساراتها القيمية، وعلاقاتٍ لا تعرف الاستقرار، سمتها الكبرى: التوتّر، وعدم التوازن في العمق. وهو (أي مفهوم «الغزو الثقافي») مُضِلٌّ، لأنه يقدّم واقعاً مختزلاً، يجردّه من جملة مكونات عيشٍ مختلفاتٍ ومتشابهاتٍ عدّة.

٢ - ومفهوم الغزو الثقافي يجرد ذاته - هو بذاته - من حقيقة معناه، من علامته الفارقة، ذلك أنه يُطرح باعتباره دخيلاً على التاريخ ودخيلاً على جملة مفاهيم تعتبر غريبة عنه (كمفاهيم الصراع والالتكافؤ بين طبيعة التصوّرات الاجتماعية، والبنى الوظيفية لفكر مجتمع دون آخر)، ويُقدّم بمفاهيم ذات طابع عسكري محض، في حين أنّ المرئي والملموس والمسموع هي ما يميّزها. والحقيقة التي تعيشها الثقافات مجتمعة، وما يُسمّى بـ «الغزو الثقافي» - حيث تُحوّل الثقافة إلى بُعدٍ واحدٍ فقيرٍ مفقّر، خالٍ من التناقضات والنقائص - ثقافةٌ ضدّية، أو تضادّية. فالثقافة في مجموعها، رغم اتّصافها بالخصوصية، لا تعرف حدوداً؛ بل هي فواصل قاطعة، تسمح لنا بتحديد جلبيّ لأركان كلّ ثقافة وهويتها، انطلاقاً من مفهوم الخصوصية، وما يميّزها من علاماتٍ فارقة.

٣ - ومفهوم الغزو الثقافي يحيل ما هو راهن ومعيش وحاضر إلى ما هو غائب، إلى صنفٍ تأمريٍّ متمر، من موقع التضادّيات؛ فالغريب دائماً خارجي، وما يُعتبر مرفوضاً ينتمي إلى الخارج «المشبه» الذي تجب محاربتة. وهذا الإجراء هو الذي يشوّه الثقافة ذاتها في مكوناتها المختلفة.

وانطلاقاً ممّا تقدّمنا به، فإنّه بوسعنا إثارة الأفكار التالية:

ماذا يعني مفهوم «الغزو الثقافي»؟ أهو تعبيرٌ عن حالة لا تكافؤية بين ثقافتين، تحاول عبورها ثقافةً قويةً في أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، القيامَ بخلخلة بني ثقافةٍ مجتمعٍ آخر، بقصد التأثير فيها، وتشويه معالمها، ومحاولة إلحاقها وظيفياً وبنوياً بحركيتها المعبرة عن مآلاتها الإيديولوجية؟ أم هو حالةٌ من تعرّضٍ لعنفٍ اجتماعي وسياسي وتاريخي - من خلال ثنائيةٍ يُعتمد عليها هي ثنائية: داخل/خارج - لا يستطيع إيجاد حلٍّ لها، أو ليست لديه الإمكانيّة القادرة على ردّ هذا العنف المتنوع؟ وأخيراً أهو وصفٌ لصراعٍ بين ثقافتين، تسعى ثقافةٍ منهما نتيجةً لوضعية القوة التاريخية التي تعيشها إلى إيجاد الأسباب التي تبرّر كلّ الوسائل المعتمدة لديها، من أجل تهميش الدرجة القيمية للثقافة الأخرى؟

إنّ المتمعّن في الأدبيات الفكرية العربية المنمّطة خاصّة، لا بدّ أن يلاحظ - سواء من خلال التحديد، أو عبر التلميح - كيف يجري التركيز على ما يُسمّى بـ «الغزو الثقافي» الذي تعرّض له المنطقة العربية على الصعد كافة: فهو غزوٌ يطول الأدب ليزيّف هويته في أشكاله التعبيرية المختلفة؛ ويخترق حقول الفكر المتنوعة ليهيكلها بأساليبٍ لفظيةٍ وبلاغيةٍ فارغةٍ من المضمون؛ ويتجسّد في الفنون المتعدّدة ليجردّها من كلّ معنىٍ قيميّ؛ ويتوضّح في مختلف أوجه التواصل الاجتماعي بين الناس وفي معاملاتهم المختلفة، ماحياً فيها كلّ عمقٍ إنساني. وهو غزوٌ يمكن أن يُفهم بأكثر من معنى، وعلى أكثر من صعيد؛ والمعاني، كما الصعد كلّها، تشكّل كلّاً واحداً في النهاية:

- غزو الغرب المسيحي للشرق الإسلامي؛
- أو غزو الغرب («باطلاق») للشرق («باطلاق») في ثنائيةٍ قوميةٍ صارخة؛

- أو غزو الغرب الإمبريالي الاستعماري في مساره الطبقي، للمجتمعات المختلفة التي تحكمها أنظمة لا تخفي ارتباطاتها الطبقيّة بنماذجها الغربية ذات المضمون الطبقي الرأسمالي الواحد...

وأشكال الغزو هذه ربّما تتداخل هنا وهناك. ولكن مفهوم الغزو الثقافي يظلّ أشبه بـ «شبح» يخيم في السماء الذهنية للأغلبية الساحقة من العرب: مثقّفين وإعلاميين وساسة رسميين وسواهم. ولعلّ تمعّناً أوّلياً في هذه الخطاطة (المتعلّقة بالغزو بتقسيماته المذكورة) يكشف لا عن فقر في المفاهيم المتداولة في تجلّيها الثقافي عربياً فحسب، بل عن إيديولوجيا عاتية تحثّ الأرضية الهشة لفكر المثقّف العربي: تلك التي

١ - الثقافة باعتبارها كونيّة الطّابع

ليس ثمة ثقافة يمكن اعتبارها ذات خصوصية استثنائية، أو مغلقة على نفسها. فالثقافة - كلّ ثقافة - كونيّة الطّابع؛ وطابع الثقافة الكوني يكمن في قدرة كلّ ثقافة على امتصاص (أو استيعاب) بعض كلمات وعناصر لغة أو ثقافة أخرى، وإعادة تركيبها بشكل ما، لتناسب وطريقة تصوّرها للعالم (مادامت اللّغة في الأصل اجتماعيّة؛ ومادام البشر، بمختلف انتماءاتهم، يتشابهون بقدراتهم العقلية ويختلفون في الأساليب التي تمكّنهم من تلبية حاجاتهم وفهم عالمهم).

وهذا يعني أنّه توجد داخل كلّ ثقافة مجموعة ثقافات تفصح عن كينونتها، أو عن مرآوتها (شفافيتها) فيها، على أكثر من صعيد، ولكونها تتجلّى داخل نسيج هذه الثقافة في النهاية. وكلّ ادّعاء بـ «طهرانية» ثقافة ما أو «عذريتها» (أي بُعدها عن مؤثرات ثقافة أخرى) هو من قبيل التقوى المزيفة. فعظمة كلّ ثقافة تكمن في انفتاحها على الثقافات الأخرى، واعترافها بها، وتفاعلها معها على الصّعد كافّة.

وهناك ثقافة تستطيع الادّعاء بأنّها فريدة تاريخها الإنساني، ووحيدة كونها. ليست هناك ثقافة لا تمارس تواصلًا بشكل ما مع ثقافة/ثقافات أخرى. فاللّغات تختلف، والرؤى تختلف، والحضور الإنساني يختلف؛ لكن الكائن الثقافي، ومبدع الثقافة، والذي يشقى، ويتألم، ويتأمل ما حوله - وإن اختلفت درجة الرؤية - هو الإنسان بامتياز.

الثقافة «عزف منفرد» لتاريخ جمعي؛ ذلك أنّ كلّ لغة تتداخل مع أخرى، وكلاً ممّا يتكلّم لغة معيّنة، هي لغته التي يُعرف بها كهويّة، ولكنّه - في نهاية الأمر - مسكون بكلّ لغات العالم إنسانياً.

إنّ عمر بن أبي ربيعة لا يعرف پول إيلوار ولا نيرودا ولا رسول حمزاتوف ولا نزار قباني، ولكن حضور الحبّ في قصائد هؤلاء هو الذي يجمعهم معاً، لأنّ الأروضية الإنسانيّة هي التي تجمع ما بينهم. وأنّ يكتب أفلاطون عن الجمهوريّة، والفارابي عن آراء أهل المدينة الفاضلة، ويحاول فوكو أن يكتب ما يشبه الجمهوريّة المعاصرة في الكلمات والأشياء... فهذا يعني أنّ الثقافة أقوى من كلّ حالة انفصال مصطنعة.

إنّ ما يثيرني في المتنبّي العربي منذ قرون، ونيكولاس غيبين الكوبي، ويانيس ريتسوس اليوناني، وناظم حكمت التركي، وشيركويكس الكردي، ومحمود درويش العربي مجدّداً... إلخ، هو حضور الإنساني المتميّز فيهم جميعاً، رغم اختلاف لغاتهم. فالثقافة «عزف منفرد» لتاريخ جمعي؛ ذلك أنّ كلّ لغة تتداخل مع أخرى، وكلاً ممّا يتكلّم لغة معيّنة، هي لغته التي يُعرف بها كهويّة، ولكنّه - في نهاية الأمر - مسكون بكلّ لغات العالم إنسانياً.

٢ - الغزو الثقافي ووهم «الأخر»

ليس ثمة آخر على صعيد التواصل الثقافي بين الشعوب. إنّ «الأخر» ليس سوى الواقع المختزل، الواقع المجيّر، الذي ترسمه الإيديولوجيا - بما هي أمحاء للتفاعل والتواصل - وتحدّد عدد مفرداته وعدّته المعنويّة. «الأخر» وهمّ في مساره الإيديولوجي، كإغلاق للواقع المعين وعليه، بقصد الإمعان في إفقاره من الداخل. وهو حقيقة عندما نجد في هذا الإجراء محاولة لتجنّب «الأخر» الأقوى حضوراً من صانع الوهم؛ وعندما نجد أنّ «الأخر» مطالبّ بدمه، ليدخل في سلطة الأقوى تابعاً ومعظماً لسلطانه.

إنّ مساحة الإيديولوجيا تتعاطم، وتبتّ مؤثراتها المدمرة في كلّ منحى فكري وثقافي؛ فلا تعود الثقافة تُفهم إلاّ من المنظور الإيديولوجي، ولا تعود الإيديولوجيا عنصراً مشعاً في الكيان الثقافي، بل تغدو الثقافة - هي ذاتها - كيان الإيديولوجيا. وإن «صناعة» الأخر، على صعيد الممارسة السياسيّة، هي من قبيل قطع الجسور بين ما يُعتاش به سياسياً في الواقع - من قبل المنخرطين في لعبة السياسي (الحاكم، أو المسؤول السياسي هنا وهناك) في إطاره العربي - وما هو متداولٌ سياسياً في مجتمع «الأخر» الذي تنتفي فيه مثل هذه التقسيمات أو التصنيفات. فالسياسة في مجتمع «الأخر» لها قواعدها المُمرّحة ورموزها الثقافيّة وأصالتها التاريخيّة المرافقة لحركة المجتمع في إطاره العام وعلى أكثر من صعيد، وأوجه خفائها وتعدديّة منابرها وتنوّع أصواتها المتنافسة... بعكس ما هو متداول عربيّاً، حيث تحالّ اللعبة السياسيّة في بُعدها الوحيد الأوحّد (هذا إذا جازت تسميتها بلعبة) على شخص هو الحاكم الشموليّ القرارات والمؤثر الأوّل في كلّ قرار يتخذ هنا وهناك، وفي ظلّه تنوّع شخصيات تابعة، أو تحاكيه، ممارسة سلطة حزبيّة أو غيرها...

و«صناعة» الأخر على صعيد الوعي التاريخي تمارس بترأّ للتاريخ، ولحركيّة التاريخ، ومفهوم الزّمن في التاريخ؛ وذلك عندما يصبح التاريخ ذا بُعد واحد، هو الماضي. والماضي هذا يتجلّى في علاقة صراعيّة بين طرفين لا يلتقيان، يشكّل «الأخر» في تجلّيه الوجودي والواقعي والثقافي كلّ رموز السلبية والتأمر المتجدّدة باستمرار ضدّ ما يُسمّى بـ «الذات» الحضاريّة في تمحورها المجتمعي.

و«صناعة» الأخر على صعيد الحضور الثقافي توّطد الانعزاليّة والاختزاليّة والفسر المفاهيمي في الوعي الثقافي، ومن خلال رموز الثقافة، حيث تتجلّى الثقافة المجتمعيّة هنا أسيرة خصوصيّة تتوالد ذاتياً.

ويتجلّى كلّ رمز ثقافي في حقيقته تعبيراً عن تاريخ محدّد، هو داخل في كيان مصطنع تصوّري وفكري، يجد معناه فيما يركّز ويراهن ويلجّ على عقلته، لتعميق المسافة الإيديولوجيّة بين ما هو معيش، وما يمثّله «الأخر». ويتمّ نسيان (أو تناسي) حقيقة حقانيّة هنا، وهي أنّ الأخر لا يُفهم بعيداً عمّا يُسمّى بـ «الذات/الأنا»، وأنّ الذات/الأنا لا تُفهم بدون

إقصاء «الآخر» مردّه إلى الخوف من رؤية «الذات» في تفكُّكها ودونية حضورها التاريخي وضحالة نشاطها الاجتماعي الفعلي.

حضور «الآخر» بكلّ تجلياته الثقافية... فأقصاء (واختزال ونفي) ما يُسمّى بـ «الآخر» تعبيرٌ عن موقف تاريخي لا يمتلك قدرةً على مواجهة ذاته، في مسارها التاريخي وتجليها الاجتماعي، والصُّعود إلى مستوى ما يعتبر الآخر «آخرًا»، لمواجهته فعلياً وعن جدارة. إنه الخوف من رؤية «الذات» في تفكُّكها، وتشرذم وضعها السياسي، ودونية حضورها التاريخي، وضحالة نشاطها الاجتماعي الفعلي.

ولعلّ المتممّن في حركة الثقافي، بكلّ أبعاده الفكرية والعلمية والسياسية وغيرها عربياً، ومنذ عقود زمنية طويلة، لا بُدّ أن يتلَمَّس هذا التأخّر التاريخي في وعي تاريخية الذات كعلاقة ليست أحادية البُعد، بل متنوّعة ومتعدّدة الأوجه، وفي عدم الارتقاء إلى مستوى ما هو راهن ومعاصر تاريخياً، والمساهمة في الإبداع التاريخي، وتأكيد الخصوصية الفاعلة.

٣ - الغزو الثقافي في ألبانه الكبرى

أن نبحت عن حقيقة الغزو الثقافي ومعناه عربياً، هو أن نتعرّف على الأرضية المجتمعية الثقافية، وهي أرضية تبدو - في العمق - ممرحة: أرضية إيديولوجية بامتياز.

الغزو الثقافي هو قبل كلّ شيء «صناعة» داخلية، ترتبط بمن يعتبرون أنفسهم «أهلّ الحلّ والعقد» بمستويات عدة. إن الحقيقة القائلة بأنه كلما بدا مجتمع ما مفككاً الأوصال متخلّفاً ويعاني تأزّماً أكثر، فإن احتمال زيادة تجلّي الإيديولوجيا في أكثر أنواعها زيفاً وتدميراً للوعي النافذ (وللقدره على الثبات في المكان والتأثير فيه تاريخياً)... لهي حقيقة ساطعة هنا. فعربياً، تبدو كلّ محاولة لربط الغزو الثقافي بأعداء حقيقيين، أو يتمّ «صنعهم» بتوليفات تاريخية أو نفسية أو إعلامية وثقافية، أو بخصوم مُحتمّين مداومين هنا وهناك لا بُدّ من مواجهتهم باستمرار... تبدو مثل هذه المحاولة - من باب رفع العجز إلى مستوى البطولة زيفاً، والتعتم على الحاضر - تعبيراً عن عجز بنيوي متشظ في المجتمع. فـ «المجتمعات الحية» - إذا جاز التعبير - هي التي تشهد تواصلًا ديمقراطياً إشعاعياً بين مختلف مجالاتها الوظيفية والسياسية، وديمومة أقوى وأعمق في تفاعلها مع سواها، وانفتاحاً على غيرها لتتأصل تاريخياً.

إنّ الغزو الثقافي عربياً «ابتكار» إيديولوجي في العمق، لأنّه تعبير عن تأزّماً اجتماعية وثقافية وسياسية عميقة! فاخترال التاريخ إلى حقيقة

واحدة وحيدة ضدية تكون هي التعبير الأمثل عن حقيقة التاريخ (ضحيتّه، أو مثاله البطولي، أو رمزه الكفاحي الأصيل... إلخ) أمرٌ يتأكّد لدينا في جملة مفاهيم ذات نزوع ثنائي مرعب، لا لقاء أو تفاعل بينها: التقدّمية مقابل الرجعية؛ والتراث مقابل الحداثة؛ والأصالة مقابل المعاصرة؛ والذات التاريخية بكلّ هشاشة تركيبها «الحضاري» الفائد لعلاماته الثقافية والفكرية مقابل «الآخر» بكلّ أحاديته المفهومية القهرية أو العنيفة الدخيلة على التاريخ - كما يبدو - تلتقي في هذه الجمهرة المفاهيمية المذكورة ومترادفاتها الأخرى، الأحزاب والتنظيمات وأفلام الغالبية الساحقة من المثقّفين. وهي عملية أدت عبر التاريخ، وتؤدي، إلى تقزيم حقيقة «الإجماع البشري»، ومعنى الثقافة والعلاقة مع الآخرين. ويمكن أن نجد خارج هذه التصنيفات المتضادة جمهرة مفردات - مفاهيم، أو معجماً بالكلمات التي تعبّر عن هذا الوعي العربي الشقي في فهم ذاته بكلّ تناقضاتها: توحى بالتعددية المفاهيمية، ولكنّها تظلّ محكومة بوعيّ بداواتي شقي، يمارس تدميراً أكبر لهوية «العقل العربي».

الغزو الثقافي ابتكارٌ إيديولوجي، لأنّه تعبيرٌ عن تأزّماً اجتماعية وثقافية وسياسية عميقة!

فالغرب المتعدّد، أو المتميّز بالتعدّد، لا يظهر في النهاية إلّا غرباً واحداً؛ والشرق في تنوّع مصادره الإيديولوجية وصراعاته لا يظهر في النهاية إلّا شرقاً مقهوراً واحداً؛ والهوية الاختلافية تظهر في حقيقتها بعيدة عن هويتها التاريخية؛ والجماهير التي تُبنى باسمها وعليها الآمال تظهر في حقيقتها أبعد ما تكون عن هذا الواقع؛ والسلطان المتجلي بتعددية الآراء والمعبر عن الديمقراطية يظهر سيّد البلاد الأوحده؛ والعدو الذي يُشار إليه بالبنان خارج المجتمع يجد نسخته الأولى في من يمارس في المجتمع تفكيكاً فولكلورياً لحقيقته وعلى الصُّعد كافة؛ وعصر الاختلاف والتكترونيات الذي يُستحضر هنا وهناك مصادرٌ من حضوره عربياً!

ليست ثمة إمكانية لفهم ما يُسمّى بـ «الغزو الثقافي» إلّا إذا انطلقنا من نفي اعتباره غزواً، كما يُسمّى تحت يافطات إيديولوجية مختلفة. وليست ثمة إمكانية لفهم هذا «الغزو الثقافي» إلّا إذا حاولنا فهم الواقع أولاً وقبل كلّ شيء. وإذًا سيظهر «الآخر» «كبش فداء» الذات بكلّ فقرها التاريخي وحضورها المجتمعي وفعاليتها المقيّدة والمجيرة!

أن نفهم هذا الغزو - وهو موجود طبعاً، مادامت هناك تفاوتات مختلفة بين المجتمعات - هو أن نفهم حقيقة هذه الـ «نحن»، وما تتضمّن من مفاهيم سياسية. فلنبداً من هنا إذا!